ماي/ ايار1945 مجزرتين في المغرب والمشرق العربيين في حق الشعبين الجزائري و السوري

د.الطاهر سبقاق– جامعة الوادي
Sebgag-tahar@univ-eloued.dz
تاريخ الاستلام :2019/05/16 ؛ تاريخ القبول : 2019/08/22 ؛ تاريخ القبول : 2020/01/30

ملخص:
استعانت فرنسا بخزّان المستعمرات فجندّت الطاقات البشرية وزجّت بها في المعارك و استغلتها في المصانع و المزارع، لكنها تلقت هزيمة ساحقة على يد الجيش النازي فوقعت تحت الهيمنة الالمانية، فتقزّمت فرنسا في عيون شعبها و مستعمراتها وحلفائهاالانجلو–امريكيين. تغيرت موازين القوى الدولية بدخول الامريكان وصمود السوفيات فمالت الكفة لصالح الحلفاء، على اثر ذلك تدارك الفرنسيون الاحرار الموقف لصالحهم في عملية المصدّر في بلاد الشام عام 1941 و عملية تورش في شمال افريقيا عام 1942. بعد حملة تونس تمت مطاردة التحالف النازي– الفاشي داخل ايطاليا وباتجاه فرنسا و المانيا، في هذه المحطات وقبلها كان االفضل الكبير للمجنّدون الجزائريون و المغاربة عامة في الجيش الفرنسي بسبب ما بذلوه من تضحيات. لم تعترف فرنسا بتلك التضحيات، وفي الوقت الذي كان العالم فيه يستعد للاحتفال بنهاية الحرب وانتصار الحلفاء، ارتكبت فرنسا مجزرتين رهيبتين في حق الشعبين الجزائري و السوري، الأولى في اوائل شهر ماي ضد الجزائريين و الثانية في اواخر الشهر نفسه ضد السوريين. على العكس مما توقّع الفرنسيون فالمجزرة الاولى جذّرت الكفاح الوطني في الجزائر وعزّزت النضال السياسي بالكفاح المسلّح، والثانية – تحت الضغط الشعبي و الدولي– عجّلت باستقلال سوريا و لبنان.
الكلمات المفتاحية: مجازر – النازية – الحرب – الشام – الجزائر .

Abstract:
France used its colonies as a reservoir, by mobilizing human energies into battles, factories and farms, despite that it was defeated by Nazi's army which took the French state under German domination, France consideration decreased in the sight of its people and colonies and allies Anglo - American. The balance of international power by the American entrance .Free French forces benefit of that new the situation by realizing some victories like Exporter operation in Levant in 1941 and Torsch operation in North Africa in 1942. Afterwards, Tunisian campaign ended by France liberation, and the occupation of Germany. Despite their great sacrifices France did not recognize maghrebin efforts in war fronts. When world was preparing to celebrate the end of the war and the victory of the Allies, France committed two terrible massacres against Algerian and Syrian people, by the first week in May against the Algerians and in its last week against Syrians. Exactly in opposite French expectation, the first massacre radicalize national struggle in Algeria, the second, under popular and international pressure, accelerated the independence of Syria and Lebanon.
Keywords: Levant – War – Genocide – Nazism – Struggle.

مقدمة

في نظري، يكتسي هذا الموضوع من الناحية المعرفية اهمية خاصة من حيث ربطه بين مجريات المغرب و المشرق العربيين، فالجلاد واحد هنا وهناك و الضحية واحد وهو الانسان العربي هنا و هناك، والغرض من هذه المعالجة وفق المنهج التاريخ بمقاربة تحليلة و مقارنة هو الاجابة عن السؤال الجوهري لماذا ضربت فرنسا بقوة هناك وهناك وبلادها كانت محتلة من طرف الالمان؟ أليس بعض اولئك الذين ضربت عائلاتهم هم الذين حرروها من

المحتل الالماني؟ جل الدراسات تناولت الموضوع بحيث كل جزء منفصلا عن الاخر ولم تبحث في العلاقة بين المجزرتين والتفاعلات التي افرزتها المجزرتين.

لما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939 كانت فرنسا طرفا اساسيا فيها ضمن تكتل الحلفاء الى جانب بريطانيا و الو أ م والاتحاد السوفياتي لاحقا ، ضد التكتل الثاني الذي ضم المانيا النازية و ايطاليا الفاشية و اليابان ، وقد كانت هذه الحرب حرب استعمارية بامتياز غاية مفجّريها تقاسم مناطق النفوذ و ما يترتب عن ذلك من غنائم ومكاسب.

هذه الدول الاستعمارية المتنافسة كانت تملك مستعمرات ومناطق نفوذ في مختلف مناطق العالم ، وبمجرد اندلاع الحرب انعكست الاوضاع الجديدة للكبار على المناطق التي تتبعها و اصبحت تلك الشعوب المستضعفة والمغلوبة على امرها وقودا للحرب ومقدّراتها خزانا للدول المستعمرة في جبهات القتال ان على الصعيد العسكري او الاقتصادي. ومن ضحايا هذا التنافس الشرس شعبين عربيين احدهما في الحوض الغربي من المتوسط والاخر في شرقه وهما: الجزائر وسوريا، الجلاد مقترف جريمة واحد هو فرنسا الاستعمارية، حدثت الوقائع في السياق النهائي للحرب العالمية الثانية، المجزرة الاولى في بداية شهر ماي والثانية في نهايته.

وقائع الاعتداء على الشعب الجزائري 8 ايار/ماي 1945

قبل الحديث عن الوقائع يجدر بنا العودة إلى الظروف والتطورات التي مرّت بها الحركة الوطنية الجزائرية والنظام الاستعماري في هذه الفترة، وكيف أصبحت العلاقة بينها؟ لقد كانت ظروف الحرب العالمية الثانية كانت مهينة للفرنسيين ، وخاصة بعد سقوط بلادهم تحت ضربات الألمان واحتلالهم لها في سبتمبر 1940، فأنقسم الفرنسيين على أنفسهم الى مؤيّد للاحتلال (جماعة فيشي بقيادة الماريشال بيتان) ومعارض مقاوم للألمان (حكومة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول) وقد انعكست هذه الوضعية على العلاقات الفرنسية –الجزائرية فأرادت فرنسا تعويض ما خسرته ضد الألمان الأقوياء بالعمل على إذلال وإهانة الجزائريين الضعفاء فشدّدت قبضتها عليهم وأدارت لهم ظهرها، لكن هذه المعاملة فتحت عيون الجزائريين أكثر خاصة وأن الجزائريين كانوا قد استفادوا من ظروف الحرب ومشاركتهم فيها، فتبلورت أفكارهم وتجذّرت مواقفهم وتوحّدت صفوفهم ، ومن المؤشرات الدالة على ذلك مذكرة الجزائريين الموجّهة للحلفاء يوم 22 ديسمبر 1942 وبعدها تحرير البيان الجزائري وتوجيهه للفرنسيين يوم 10 فيفري 1943 وأكثر المؤشرات وضوحا و تأثيرا في تطور الأحداث هو تأسيس حزب أحباب البيان والحرية " يوم 14مارس 1944 الذي جمع كل الاتجاهات السياسية الجزائرية الفاعلة ماعدا الشيوعيين و هذا التطور في حد ذاته اعتبرته الإدارة مظهر من مظاهر التحدي فلم يرق لساسة الاستعمار و أصبح هاجسا يقضّ مضاجعهم.

بدأت ملامح فشل وهزيمة دول المحور ترتسم في الآفاق بعد تحرير إيطاليا وفرنسا في 1944 ثم محاصرة برلين في أبريل 1945بفضل تحالف قوى"الديمقراطية" ضد النازية والفاشية ورافق ذلك دعاية إعلامية كبيرة تبشّر بغدٍ

أفضل وعالم تسوده الحرية والديمقراطية طبقا لما ورد في ميثاق الأطلسي 1941وتصريحات زعماء التحالف الواعدة بتكريس حق الشعوب في تقرير مصيرها ومكافأة شعوب المستعمرات على تضحياتها إلى جانب جيوش الدول المستعمرة و هو نفس ما صرّح به شارل ديغول من برازافيل في جانفي 1944.

في هذه الظروف بالذات ومصادفة مع الاحتفال العالمي بعيد الشغل في فاتح ماي 1945 وقعت مظاهرات عديدة في المدن الجزائرية تظاهر فيها الأوربيون بدعوة من النقابة الفرنسية (C.G.T) والجزائريون بإيعاز من حزب أحباب البيان والحرية و خاصة حزب الشعب الذي كان الفصيل الأكثر نشاطا و تأثيرا داخل هذا التجمع الوطني، وقد جرت هذه المظاهرات في" تبسة،القل، خنشلة، عين البيضاء،سطيف،وهران،تلمسان، وخاصة الجزائر العاصمة (Kaddache,M, 1980:700). وكذلك مظاهرات أخرى في "بجاية وقسنطينة و مستغانم وقالمة وغيليزان وباتنة و بسكرة و سيدي بلعباس وسوق اهراس و شرشال و سكيكدة وسعيدة و عنابة و مليانة" (Tabet,R.A.1985:33)رفعت خلالها لافتات كتب عليها " الحرية للجميع"، "أطلقوا سراح مصالي الحاج"، "تحيا الجزائر حرّة مستقّلة" تدخّلت على اثر ذلك الشرطة الفرنسية كعادتها بعنف لتفريق المتظاهرين فأسفر ذلك حسب محفوظ قداش على 13 "جريح و 2قتيل من الجزائريين و 3جرحى من رجال الشرطة الفرنسيين" (Kaddache,M, 1980:700) بينما يقدم رضوان عيناد ثابت ارقام أخرى "19 جريح و 02قتيل من الجزائريين و 06 جرحى من رجال الشرطة الفرنسيين"(Tabet,R.A.1985:33) ولجأت الإدارة الفرنسية إلى توقيف العديد من العناصر الوطنية المنتمية لحزب الشعب وحزب أحباب البيان والحرية باعتبارهم مسؤولين عن الإحداث.

كانت مظاهرات الفاتح من ماي إنذارا للفرنسيين وتسخين عضلات للجزائريين حقّقوا خلالها نصرا سياسيا على الإدارة الاستعمارية وأبلغوا رسالة واضحة للحلفاء والعالم بأن الشعب الجزائري ماض في كفاحه وعازم على انتزاع حريته من الاستعمار الفرنسي.

وقّع الألمان على وثيقة الاستسلام في السابع ماي وفي اليوم الموالي احتفلت شعوب العالم وعواصمه الكبرى ولاسيما تلك التي شاركت في هذا النصر بشكل مباشر و غير مباشر، فكانت مظاهرات ضخمة شارك فيها الجزائريون كغيرهم من شعوب العالم للتعبير عن فرحتهم بهذا النصر وإسماع صوتهم إلى العالم وتذكير فرنسا بوعودها مقابل ضريبة الدم التي دفعها الجزائريون في حرب لا تعنيهم.

تظاهر الجزائريون بالمناسبة (8 ماي) في كامل التراب الوطني في تلمسان ووهران ومستغانم وسيدي بلعباس والمدية والبليدة والجزائر وتيزي وزو و بوسعادة وباتنة وبسكرة وخنشلة وقسنطينة وسطيف وجيجل وبجاية وعنابة وقالمة إلا أن المظاهرات كانت أكثر ضخامة وحرارة في سطيف وقالمة من حيث عدد المتظاهرين والحوادث التي تخللتها وردود الفعل الاستعمارية، المظاهرات بدأت في سطيف ثم تبعتها قالمة وإن كان عدد المتظاهرين في الأولى أكبر والمدة الزمنية أطول إلا أن عدد المتظاهرين في قالمة كان أقل والمدة الزمنية كانت أقصر لكن رد الفعل الاستعماري كان أشد، كان عنفا همجيا أعمى، حيث شاركت فيه كل القوات برا وبحرا و جوا وبينما شاركت

قوات الجيش والدرك والشرطة في القمع بمدينة سطيف و ضواحيها إلا أن مدينة قالمة شهدت انضمام ميليشيات المعمرين بمباركة رئيس الدائرة "اشياري" الذي ساهم بنفسه في إطلاق الرصاص على المتظاهرين والسماح للحرس المدني باخراج المساجين الجزائريين و إطلاق النار عليهم"(Mahsas,A 1979:201) . عموما اتخذ القمع الفرنسي الذي سلّط على الجزائريين ثلاث أشكال:" عمليات حربية شاركت فيها القوات البرية والجوية والبحرية، إعدامات همجية بلا محاكمة نفّذتها القوات العسكرية بمعية و إسناد المليشيات المدنية، القمع القضائي الذي أعقب المظاهرات"(Letourneau,R 1962:35) حيث تم توقيف الآلاف من الجزائريين وإصدار أحكام قاسية ضدّهم،"4560 مواطنا اعتقلوا وحوكم 1300 منهم، 99 بالإعدام و64 بالأشغال الشاقة المؤبدة و 329 بالأشغال الشاقة المؤقتة "(حلمي،م 2004: 649). ويرى بعض المؤرخين أمثال روجي لوتورنو أنه " مهما يكن فان القادة العسكريين الفرنسيين كانوا يخشون من اتساع نطاق الاضطرابات إلى كامل التراب الجزائري ومن ثم كان من واجبهم كتم أنفاس هذه الحركة في مهدها، كان عليهم الضرب بقوة وبسرعة وهذا لا يمنعنا من القول بأنهم ضربوا بقوة أكثر مما يجب"(Letourneau,R1962:351).

من خلال الوقائع التي تخللتها المظاهرات ولاسيما في سطيف وقالمة يبدو بلا شك أن العنف المستعمل ضد الجزائريين كان عنفا همجيا، مجانيا ...يمكننا تفسيره طبعا ولا يمكن تبريره بأي حال من الأحوال لأنه لا يتناسب مع الذنب المرتكب – إن كان هناك ذنبا أصلا – فالمظاهرات كانت سلمية ومؤطرة ومرخّصة ومتوقعة بدليل ما أورده فرحات عباس – وهو احد الذين عاينوا و صنعوا الأحداث – في كتابه "ليل الاستعمار " : "في أفريل 1945 أفضى والي قسنطينة ليستراد كاربونيل للدكتور سعدان بأن هناك اضطرابات ستحصل قريبا وسيحّل أحد الأحزاب الكبيرة (فرحات، د.ت:153)" ولكن فرنسيي الجزائر من المعمّرين ومنظريهم لم يستسيغوا يقظة الجزائريين وإصرارهم وتمسكهم بمطالبهم الوطنية لأن في ذلك تهديدا مباشرا وخطيرا لمصالحهم في الجزائر.

إن مظاهرات 8 ماي هي امتداد لمظاهرات فاتح ماي، وإن اختلفت دواعي التظاهر، والأسباب واضحة بالنسبة للجزائريين هي فرصة ثمينة هيّأتها ظروف دولية وإقليمية ومحلية للمطالبة بحقوق وطنية مشروعة وبأسلوب حضاري سلمي . أما الادعاءات والتفسيرات التي طرحتها بعض الأوساط الفرنسية حول أسباب التظاهر والصدامات بين الفرنسيين والجزائريين بأنها فقد أرجعتها إلى تردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كقلة الغذاء والشغل ... هي إدعاءات تداولتها الصحافة الاستعمارية وروّج لها الكثير من المؤرخين المأجورين، انه طرح واه ومفتعل ومغرض غايته تغييب الشخصية الجزائرية ونفي تبلورها السياسي والوطني و هناك الكثير من الحقائق تدحض هذا الطرح فمنطقة سطيف لم تكن من المناطق قليلة الغذاء والنشاط ومع ذلك كانت أكثر المناطق حرارة، ثم هناك مناطق أخرى في مختلف جهات الوطن هي من الأكثر بؤسا وفقرا و حرمانا ومع ذلك لم تحرك ساكن ولم تشارك في المظاهرات، وفي مستوى آخر من التحليل وباعتراف من الإدارة الاستعمارية الفرنسية "لم تسجّل أية هجمات على مخازن المؤن والغذاء في مناطق الانتفاضة" (Letourneau,R 1962:352) و لم تقرأ أية لافتة محمولة خلال المظاهرات يطالب فيها الجزائريون بالخبز والطعام، فكل الشعارات كانت تحمل

مدلولات سياسية مطلبية واضحة تعكس مستوى الوعي السياسي والوطني المتصاعد وتبرز مدى عزم النخبة السياسية الجزائرية على تحدي ومواجهة الإدارة الاستعمارية الفرنسية ، وقد حاول كذلك بعضهم تبرير ما جرى "بأن مصالي زعيم حزب الشعب الجزائري كان قد تجوّل لإلقاء خطب مهيّجة في بعض الجهات، ولكن هل من الحق أن يقابل خطاب يلقيه زعيم في جهة ما– مهما كان الخطاب قاسيا و عدائيا– بإغراق الشعب بأحدث أنواع الأسلحة الجهنمية واصلائه نارا حامية يتلظى أوارها، وحربا طاغية لا قبل له بصدها؟.." (الفاسي،ع. 1948: 31).

أغلب المراجع حصرت مجال الاضطرابات في الشمال القسنطيني إلا أن الدراسات التاريخية الحديثة التي قام بها مؤرخون جزائريون أمثال محفوظ قداش وعيناد ثابت وأبو القاسم سعد الله تؤكد أن المظاهرات شملت كامل التراب الوطني شرقا ووسطا وغربا بل وصلت شمال الصحراء في بسكرة وبوسعادة، ولو أن كل الدلائل والمؤشرات تؤكد بأن المظاهرات كانت أكثر حرارة وضخامة وديمومة في الشرق عموما وفي سطيف و خرّاطة و قالمة خصوصا.

حصيلة الاعتداء على الجزائريين

بالنسبة لحصيلة العدوان فقد تعددت التقديرات و تضاربت و تناقضت الأرقام المقدّمة من هنا و هناك ، بالنسبة للجزائريين فإن " عدد الضحايا قد بلغ 45000 شهيد بل أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قدّمت رقم 85000 شهيد، في حين ترى الإدارة الاستعمارية بناء على تقرير الحكومة العامة أن عدد ضحايا المسلمين هو 1340 ضحية ، بينما يعتبر كل من شارل أندري جوليان وريمون أرون أن الرقم هو 6000 ضحية، والبعض الآخر أمثال جيرمين تيون تراه بين 15000 إلى 30000 ضحية، وتقدم صحيفة نيويورك تايمز الصادرة يوم 1946/12/25 إحصائية بين 7 آلاف و18000 ضحية في حين صرّح سفير الولايات المتحدة الأمريكية أن الرقم تجاوز 40 ألف" (Tabet,R.A.1985:72)، أما عن الضحايا الأوروبيين فإن القائمة الرسمية التي أصدرتها الحكومة العامة في الجزائر تتضمن 102 ضحية، 77 منهم في منطقة سطيف لوحدها و10 في قالمة (Tabet,R.A.1985:73) والباقي في مناطق أخرى من الشرق الجزائري .

ويعتقد آخرون، من باب الموضوعية المثلى وقصد الخروج من معركة الأرقام بين أشلاء الضحايا، على غرار الباحثة الفرنسية اني غولدزايغر والتي قررت غلق ملف إحصاء الضحايا الجزائريين بأن وصلت إلى قناعة مفادها أن الرقم الحقيقي للضحايا الجزائريين ، بدون شك ، يتأرجح بين الرقم الفرنسي الرسمي المصرح به أي 1340 ضحية و الرقم الجزائري الشائع أي 45000 ضحية.

بالرغم من كل هذه الاختلافات في المعطيات الإحصائية إلا أن الثابت لدى الجميع هو أن الضحايا الجزائريين أكثر بكثير جدا من الضحايا الأوروبيين، فالمعطيات الرقمية بخصوص الأوروبيين حساب دقيق ورد في تصريح رسمي للإدارة الأوروبية، أما المعطيات المتعلقة بالجزائريين فهي عبارة عن تقديرات غير مؤكدة والمبالغة في الأرقام أمر وارد فالأوروبيين تعمّدوا تخفيض عدد الضحايا الجزائريين و تزوير وإخفاء الحقائق و إلا بماذا نفسّر "عدم نشر تقرير الجنرال توبير بل إنهاء تحرياته بسرعة كبيرة ؟ فقد تم تعيينه يوم 19ماي ومكث بالجزائر العاصمة

6 أيام ، بحجة انتظار عضو جزائري في لجنة التحقيق وهو قاضي تلمسان " الطالب شعيب ولد بن عودة"، قبل التوجه نحو سطيف يوم 25 من نفس الشهر، أن لم يكن من اجل إعطاء فرصة لسلطات سطيف لتحضير أنفسهم ومحو آثار الجرائم"(ligue des droits de l'homme, 2009).

وما يؤكد أكثر سوء النوايا هو إعادة استدعاء الجنرال توبير إلى العاصمة يوم واحد بعد وصوله إلى سطيف ؟! أي أن الجنرال توبير لم يزر المنطقة الثانية المتضررة من الإحداث بعد سطيف وهي منطقة قالمة وضواحيها والتي شهدت أبشع الجرائم ، وربما قد بالغ الجزائريون وذلك له ما يبرره فهم الأضعف والأكثر تضررا، ويبقى هنا دور المؤرخين والدارسين لتعميق البحث عن والفصل في المسألة.

يبقى الآن السؤال المطروح :من كان وراء هذه المظاهرات تحضيرا وتأطيرا؟ يذهب بعض المؤرخين الاستعماريين المأجورين ومن باب تقزيم الدور الذاتي للجزائريين إلى عزو ما حدث لأطراف خارجية كقوى التحالف (الولايات المتحدة وبريطانيا) وخاصة بريطانية و إلى الدعاية الألمانية أو الحركة القومية العربية في المشرق بعد قيام جامعة الدوال العربية، ويبدو لي هذا سوء تقدير أو تقدير مغرض فيه كثير من الخبث والاستعلاء وقصر النظر، لأن مؤشرات تبلور الوعي الوطني من خلال رسالة الجزائريين والبيان وتأسيس حزب أحباب البيان تحمل كل الدلالات، كما أن أزمة النظام الاستعماري والحرج الذي وقع فيه أمام أعضاء التحالف يبرر هذا التقدير، وتؤكده في الأخير حالة الانسداد والتصادم في العلاقة الجزائرية –الفرنسية، وبناءا عليه فإن حزب الشعب الجزائري وثقله داخل حزب أحباب البيان والحرية يجعله المؤهل والمرشح الأول لتأطير المظاهرات وتسييرها.

وقائع الاعتداء الفرنسي على الشعب السوري 29 ايار/ماي 1945

إن تغير معطيات الحرب العالمية الثانية على جبهة شمال إفريقيا وعلى الجبهة الأوروبية لصالح الحلفاء جعل الموقف الفرنسي يتجه مجددا نحو التشدد في مواجهة مطالب الحركة الوطنية السورية كمحاولة منها – أي فرنسا– لاسترجاع هيبتها في المشرق والحيلولة دون ضياع مصالحها في المنطقة، و كذلك غلق الطريق أمام الأطماع البريطانية المعلنة والخفية في استخلافها هناك ، ومن الجهة المقابلة كانت الكتلة الوطنية عازمة على استغلال كل المكاسب التي حققتها سوى ما تعلق منها بالتنازلات الفرنسية أو ما حصدته من دعم سياسي ودبلوماسي على المستويين العربي والدولي، وكذلك الاستفادة من الصراع الدائر بين البريطانيين والفرنسيين وتحويله ليصب في مصلحة الشعب السوري! فقد كانت الحكومة مصرّة وعازمة على تحقيق الاستقلال التام والناجز بدون شروط وفرنسا حريصة على تقييد سوريا بمعاهدات تضمن لها امتيازات عسكرية واقتصادية وثقافية تسمح لها إن خرجت من الباب أن تعود من هذه النوافذ ... في هذه الظروف بلغ الاحتقان أوجه ، واتجهت الأمور نحو التعفّن والانسداد.

كان من المقرر أن تبدأ المفاوضات بين فرنسا وسوريا يوم 19 ماي 1945، غير أن الحكومة الفرنسية ارتأت ضرورة التلويح بالقوة العسكرية قبل الشروع في المفاوضات لترهيب السوريين وفرض هيبتها عليهم كضمان لتسهيل فرض شروطها على المفاوضين السوريين، وفي هذا الإطار، أمر الجنرال ديغول بإرسال تعزيزات عسكرية إلى

سوريا ولبنان وسلّم تعليمات حول المفاوضات للجنرال باينيت مفادها أن هدف المفاوضات هو إبرام معاهدات لتسوية القضايا المطروحة بسبب الانتقال من وضع الانتداب إلى وضع الاستقلال لكن مع مراعاة المصالح الثقافية والاقتصادية والإستراتيجية لفرنسا .

طبقا لما سبق ذكره وصل أول فوج من القوات الفرنسية إلى ميناء بيروت قادما من شمال إفريقيا (الجزائر و بنزرت) وذلك يوم 05 ماي 1945، وفي اليوم الموالي أرسلت الحكومة السورية مذكرة احتجاج إلى فرنسا تحذرها من جلب التعزيزات العسكرية، كما وجّه وزير الخارجية جميل مردم بك مذكرة للحكومة البريطانية أوضح فيها أنه ما دامت الحرب في أوروبا قد انتهت فلم يعد يحق لأية قوات أجنبية الدخول إلى الأراضي السورية دون موافقة الحكومة السورية، ومع ذلك لم تعر فرنسا أي اهتمام لمذكرات الاحتجاج السورية وأصبح الوضع يندد بالانفجار كما وصفه القائد العام للجيش البريطاني الجنرال باجيت في برقية موجهة إلى وزارة الحرب البريطانية: " مدرعات مسلّحة ودوريات تجوب الشوارع باستمرار في دمشق وحلب، وأن المدرعات باقية في دمشق وأن الطائرات تحلّق فوق المساجد في أوقات الصلاة، وأن الرشّاشات منصوبة باستمرار فوق السطوح.."(مردم بك، س. 1994: 428-429). وبناء على هذه البرقية اتصل السفير البريطاني في باريس داف كوبر بالجنرال ديغول طالبا منه نزع فتيل الوضع المتفجّر لكن ديغول لم يرضخ وردّ عليه قائلا: " ....أنكم تصرون على التدخل بين فرنسا و بين الدول التي تحت انتدابها. و عليه فإننا نعتقد، وعن حق، بأن هدفكم هو طردنا"وهو ما زاد في تعقيد الموقف أكثر.

من جهتها أرسلت الحكومة الأمريكية كذلك مذكرة تدعو فيها الجنرال ديغول إلى الالتزام بالحل الدبلوماسي وتفادي الصدام، ومع ذلك لم يؤثر لا الطلب البريطاني و لا المذكرة الأمريكية في شارل ديغول بسبب قناعته بتآمر البريطانيين مع السوريين لطرد الفرنسيين حيث أورد في مذكراته: " لن نرحل إلا إذا كنا مرغمين وسنذهب إلى حد مقاتلة الثورة والإنجليز معا، ولن أصغي إلى المزايدات" (مردم بك،س. 1994: 429) ويتّضح من هذا أن ديغول كان عازما على البقاء في سوريا بالاعتماد على القوة العسكرية، كما يؤكد هذا الاتجاه " البلاغين العسكريين اللذين أصدرهما قائد القوات الفرنسية في سوريا الجنرال أوليفا- روجيه يوم 26 ماي 1945احدهما موجه إلى العسكريين يدعوهم فيه إلى الاستعداد للمواجهة، والثاني للرعايا الفرنسيين يدعوهم فيه إلى اليقظة و الحذر" (رضا، ع. 1979: 478-484).

عمت الاضطرابات المدن السورية ولا سيما حمص وحماه وحلب و حوران و دير الزور يوم 27 ماي وتدخّلت القوات الفرنسية بواسطة الجنود السنغاليون لإخمادها ، وكلما كان التدخل عنيفا زادت المظاهرات عنفا وحرارة، مما دفع جميل مردم بك إلى التكثيف من اتصالاته مع الأمريكيين والبريطانيين بشكل خاص للتدخل من أجل منع الحرب الساخنة، وبالفعل في 28 ماي عقد تشرشل اجتماعا موسّعا حضره وزير خارجيته انطوني ايدن ورؤساء أركان الإمبراطورية للتباحث حول الموقف المثالي الواجب اتخاذه، وكانت حصيلة اللقاء: التريث والانتظار وعدم التدخل قبل معرفة الموقف الأمريكي، وفي نفس الوقت إرسال برقية لتلطيّف مزاج السوريين تدعوهم لعدم

تهويل الأمور. في اليوم الموالي 29 ماي وقع العدوان بعد رفض حراس البرلمان – المقابل لمقر قيادة الأركان الفرنسية في دمشق – من الشرطة والدرك السوري الاستجابة لأوامر الفرنسيين من اجل أداء التحية للعلم الفرنسي وكان هذا الرفض بداية العدوان على الشعب السوري.

بدأ العدوان بقصف البرلمان ثم اقتحامه وقتل حراسه والتمثيل بجثتهم ثم إتلاف معدات البرلمان وأثاثه كما حملوا كل الأوراق الرسمية والصندوق الحديدي الموجود في مكتب رئيس المجلس، ويبدو من خلال عمليات التفتيش الدقيق لغرف المجلس وأروقته وكأن الفرنسيون كانوا يبحثون عن أعضاء من المجلس أو الحكومة لإبادتهم أو اقتيادهم على خلفية أنهم كانوا يعلمون أن هناك جلسة ستعقد ذلك اليوم، وبالفعل "كانت هناك جلسة مقررة على الساعة الخامسة ظهرا لسماع بيان جميل مردم بك حول تطورات الموقف لكن الاستعدادات الفرنسية و الدبابات المرابطة أمام المجلس حالت دون وصول كثرة النواب واكتمال النصاب القانوني للجلسة فاجّل الرئيس الجابري الجلسة إلى موعد أخر..."(التلاوي،س. 1951: 142).

بعد قصف البرلمان تم توجيه المدفعية والطيران نحو القلعة المجاورة التي يوجد بها مقر قيادة الدرك والسجن المدني وقد سقط عدد كبير من السجناء قتلى في زنازنهم ولولا إصدار النائب فخري البارودي أمرا بإطلاق السجناء جميعا لقتل من بالسجن، وبعد القلعة بدأ القصف يتجه نحو فندق الأوريون بالاس حيث يقيم رئيس مجلس النواب سعد الله الجابري الذي لم يكن يومها هناك لكن القصف تسبب في سقوط العديد من الأجانب منهم ضابطين بريطانيين، ثم توجّهت القذائف نحو الدوائر الرسمية ثم اقتحامها ونهب وسلب ما بداخلها مثل" وزارة الخارجية والداخلية والمالية والدفاع الوطني ورئاسة مجلس الوزراء والإعاشة والإشغال العامة و مديرية الأوقاف العامة والعشائر العامة و دائرة النافعة" (مجهول، 1945: 27).

احتل الجيش الفرنسي ايضا مركز الهاتف ومركز توزيع الكهرباء واستمر القصف طوال ليلة 29 أيار وحتى صبيحة اليوم الموالي وأشاع الفرنسيون أن الحكومة قد تركت العاصمة، وقد تمكّن جميل مردم بك من الاتصال بالرئيس والممثلين البريطاني والأمريكي وتم إعلامهما بضرورة التدخل العاجل لإيجاد حل للأزمة، وأن ذلك هو المحك لمصداقية الحلفاء في وضع وعودهم موضع التنفيذ.

حصيلة الاعتداء على السوريين

بالنسبة للحصيلة العدوان في سوريا إن اغلب المراجع تتحدث عن عدد من الضحايا يتراوح بين 500 إلى 600 شهيد، وجرحى عددهم تراوح بين 1400 إلى 2000 جريح، وفي مكان أخر ورد " عدد القتلى 616 منهم 39 دركي و الجرحى 2072 منهم 82 دركي "(مجهول، 1945: 146) وتشير مراجع أخرى إلى 500 شهيد سوري منهم 82 دركي من أصل 83 دركي كانوا يحرسون مقر البرلمان فيما وصل عدد الجرحى إلى 500 جريح ، وحسب كامل الدعواق " بلغ عدد الشهداء 41 منهم 38 دركي وثلاث من الشرطة وجريحين من الشرطة "(الدعواق، د.ت: 13-14)، وقد صرح تشرشل في مؤتمر صحفي أن "مأساة دمشق تسببت في قتل 400 مدني و 80 دركي، أما الجرحى فعددهم 500 شخص أصيبوا بجراح ذات شأن و 1000 أصيبوا بجراح

مختلفة "(تقي الدين،م. 1956: 140) وبالنسبة للجانب الفرنسي سجّل سقوط 78 عسكري منهم 28 ضابطا.

كان نصيب مدينة دمشق هو الأكبر من عمليات القصف وما تبعه من أعمال عدوانية وحشية عاشتها أحياء المدينة طوال الأيام الثلاثة للعدوان لذلك كان الخراب والدمار فيها أكثر وضحاياها أكثر، (بشهادة الجنرال البريطاني باجيت نفسه)، في حين تأثرت المدن الأخرى كحماه وحمص ودير الزور و حوران و الحسكة واللاذقية والسويداء بدرجة أقل إلا أن الصدامات توقفت في اليوم الثالث من العدوان في دمشق لكنها استمرت خارجها إلى غاية منتصف شهر جوان 1945. يمكننا القول أن فظاعة هذا العدوان تتجلى في لجوء الإدارة الاستعمارية إلى استخدام القوة المفرطة في مواجهة شعب اعزل طالب بحقّه في السيادة و الاستقلال طبقا لما اتفق عليه، وقد كانت الحصيلة فظيعة بالنظر إلى عدد الضحايا قياسا للزمن القصير الذي استغرقه العدوان وهو ثلاثة أيام تقريبا (68 ساعة). ومهما يكن فنتائج العدوان أنست الشعب السوري تلك الحصيلة الدامية، صحيح أن الثمن كان غاليا و لكن النتيجة كانت أغلى ألا وهي الجلاء والاستقلال.

يمكن القول أن هذا العدوان العسكري على الجزائر وسوريا يدخل في سياق رغبة فرنسا في استرجاع ممتلكاتها في المشرق والمغرب وإحكام السيطرة عليها، وفي نفس الوقت بغرض تقديم دليل عسكري وسياسي على استعادة فرنسا لقوتها ومكانتها الدولية أمام التحالف الأنجلو- أمريكي الذي همّشها وقزّمها على المستوى الدولي سياسيا وفي جبهات الحرب عسكريا، وأحرجها معنويا أمام شعبها وشعوب المستعمرات. وايضا لتوجيه رسالة عنيفة للحركة الوطنية وشعوب البلدين لتتخلى عن مطالبها الاستقلالية وتخضع خضوعا مطلقا للإرادة والإدارة الاستعمارية الفرنسية.

كانت حركة أحباب البيان والحرية أصبحت محور التفاف جمعت كل التيارات السياسية الفاعلة في الساحة الجزائرية وأصبحت مطالبها الراديكالية تقلق المعمرين والساسة الفرنسيين وتثير حماس ويقظة الوطنيين الجزائريين ولم تجد الوسائل والأساليب السياسية من إصلاحات و إجراءات شكلية في إسكاتها، وفي نفس الاتجاه كانت الكتلة الوطنية في سوريا قطبا سياسيا محوريا في تجنيد الشعب السوري وتغذيته بالروح النضالية للاستمرار في مطلبه الشرعي لاستلام القوات الخاصة وقوات الأمن العام من أجل استكمال استقلاله وسيادته طبقا للمواثيق الموّقعة بين الدولتين وطبقا للمواثيق والأعراف الدولية، وبالطبع إذا تخلّت فرنسا عن هذه القوات ستسقط من يدها الورقة الضاغطة والأداة الفعالة لضمان نفوذها في المنطقة فكان لا بد من الضرب بيد من حديد ضد الكتلة الوطنية والشعب السوري لسد الطريق وزرع اليأس في نفوس السوريين الطامحين إلى التخلص من السيطرة الاستعمارية الفرنسية.

المواقف الدولية من العدوان العسكري الفرنسي

بعد أن تعرفنا على حجم الدمار والخراب والضحايا البشرية في كل من الجزائر وسوريا والذي اتسع نطاقه في الجزائر ودام لأكثر من أسبوع متواصل و إلى نهاية شهر ماي بشكل متقطّع ، بينما تضررت فيه دمشق أكثر

من غيرها من المدن الأخرى المجاورة في سوريا واستمر لمدة ثلاث أيام فقط لكن ضخامة الخسائر المادية والبشرية والظروف الدولية التي وقع فيها العدوان زادت من صداه على المستوى الإقليمي والدولي من خلال وسائل الإعلام وتقارير السفراء والقناصل والنشاط الدبلوماسي والسياسي للمتضررين الجزائريين والسوريين، هذا بالرغم من إجراءات التعتيم التي قامت بها الإدارة الاستعمارية لتقزيم الأحداث وحصيلتها والتحجج بضرورات الأمن العام والدفاع عن أرواح الرعايا الفرنسيين، وعموما يمكن عرض الموقف الدولي على النحو التالي:

– موقف الجامعة العربية

كانت معظم الدول العربية خلال الحرب العالمية الثانية تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية بشكل مباشر أو غير مباشر، في المشرق العربي تحت السيطرة البريطانية بشكل خاص أو التبعية لها ويتعلق الأمر حصريا بمصر والمملكة العربية السعودية وهما الدولتان العربيتان الوحيدتان اللتان اتخذتا موقفا من المسألة السورية اللبنانية ولكن هذا الموقف لم يكن منفصلا على المبادرة البريطانية التي جاءت على لسان وزير الخارجية البريطاني أنطوني ايدن سنة 1941 الداعية إلى إنشاء هيكل تنظيمي يجمع الدول العربية وينظم شؤونها وهي المبادرة التي لقيت ترحيبا من الدول العربية وخصوصا مصر التي أخذت زمام المبادرة في الدعوة إلى تأسيس الجامعة العربية، "وفي هذا الإطار جرت محادثات سورية– مصرية في 16 تشرين الأول 1943 قادها سعد الله الجابري عن سوريا والنقراشي باشا عن مصر حول مسألة الوحدة العربية (المعلم،و. 1985:) وبعد حوالي سنة وبالضبط في 7 تشرين الأول 44 التقت الوفود العربية في مدينة الإسكندرية للتوقيع على بروتوكول الاتفاق والذي أصبح يعرف ببروتوكول الإسكندرية، وفي 14 فيفري 1945 التقى وزراء خارجية الدول السبع (مصر– السعودية– سوريا– لبنان– الأردن– العراق– اليمن) لوضع مشروع ميثاق الجامعة والذي تم التوقيع عليه يوم 22 مارس 1945، وقد كانت سوريا دوما حاضرة من بداية طرح الفكرة إلى تاريخ التوقيع على الميثاق من خلال نشاط شكري القوتلي و سعد الله الجابري وجميل مردم بك .

في هذه الظروف كانت المسالة السورية أول أزمة واجهتها الجامعة العربية على إثر تدهور العلاقة الفرانكو– سورية بعد رفض حكومة سوريا عقد معاهدة مع فرنسا حسب الشروط الفرنسية، وما رافق ذلك من عمليات إنزال للقوات الفرنسية في ميناء بيروت للتلويح بإمكانية استعمال القوة العسكرية وإجبار السوريين على توقيع المعاهدة، وقد علّق عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية على الموقف في تصريح لجريدة نيويورك تايمز الأمريكية يوم 45/05/22،" بأن فرنسا صعّدت بذلك الأزمة وتراجعت عن قراراتها السابقة، التي نصّت على استقلال سوريا وعادت إلى أساليبها القديمة" (محمد رجائي،ر. 2003: 278). كما قدمت الحكومتين السورية واللبنانية طلب لبحث المسألة من طرف الجامعة فأعلن أمينها العام على إثر ذلك يوم 22 ماي أن مجلس الجامعة سيجتمع يوم 4 جوان لدراسة الطلب السوري اللبناني ولكن الأحداث تسارعت والمسألة تأزمت قبل موعد اجتماع مجلس الجامعة وكانت بريطانيا قد تدخلت يوم 1945/06/01 وأجبرت الفرنسيين على وقف طلاق النار. وبالفعل

اجتمع مجلس الجامعة يوم 4 جوان وعبّر خلاله مندوب مصر النقراشي باشا على شكره لبريطانيا على تدخلها الحاسم، وقدم الوفدان السوري واللبناني مذكر ثنائية إلى المجلس جاء فيها:

– طلب اتحاد تدابير لصياغة استقلال سوريا.

– لمحة تاريخية عن أعمال فرنسا في سوريا ولبنان.

– ما قامت به فرنسا من أعمال القتل والنهب والسلب.

– السبب الأول في كل ما قاسته سوريا ولبنان هو وجود الجيش الفرنسي" (محمد رجائي،ر. 2003: 280).

بناء على ذلك أصدر مجلس الجامعة بلاغ رسمي يوم 7 جوان أبدى فيه تأييده المطلق لطلب سوريا ولبنان بالجلاء العاجل للقوات الفرنسية عن أراضيها، وأن الجامعة العربية عازمة على اتحاد كافة الإجراءات التي تراها ضرورية لوقف العدوان، ولم تضطر الجامعة لتنفيذ قراراتها بهذا الشأن لأن فرنسا في الأخير وتحت الضغوط الدولية داخل هيئة الأمم وافقت على سحب قواتها ومع ذلك فقد كان موقف الجامعة سندا دبلوماسيا وسياسيا للمسألة السورية اللبنانية.

بالنسبة للموقف العربي من العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر لم يقع بين يدي ، ما يؤكد الموقف الرسمي العربي للدول التي تتمتع بنوع من الاستقلال الشكلي في ظل الخضوع المباشر أو غير المباشر للتاج البريطاني كالعراق و الأردن و اليمن و مصر و المملكة العربية السعودية، و لا حتى سوريا و لبنان اللتين هما معنا في نفس المحنة و تحت رحمة نفس الجلاد . و باقي الدول السبعة المذكورة أعلاه هي الدول المؤسسة للجامعة العربية الناشئة في 22 مارس 1945 و التي لم تول أي اهتمام لدول المغرب العربي في بداية نشأتها بحكم أن مبادرة تأسيس الجامعة كانت مبادرة بريطانية ومعلوم أن اهتمامات بريطانيا كانت دوما منصبة على المشرق العربي و الشرق الأوسط عامة حيث قناة السويس و إسرائيل و بترول السعودية و العراق و إيران .

كما أن الإدارة البريطانية تعلم مسبقا أنها – أي الجامعة العربية – ستكون جامعة حكومات – موالية لها – و ليست جامعة شعوب ، لذا لم نجد أثرا لموقف الجامعة العربية من العدوان الفرنسي على الجزائر بينما حظيت سوريا و لبنان باهتمام كبير و كانت أول امتحان عسير لها لاعتبارات سياسية و جيو–إستراتيجية تخص بريطانيا التي كانت ، كما رأينا في صراع محموم مع غريمتها فرنسا في الأراضي السورية اللبنانية ، فمن الطبيعي و الجائز الاستنتاج بأن بريطانيا كانت حريصة على وضع المسألة على طاولة الجامعة العربية دون أدنى تخوف من أي انزلاقات محتملة لأنها صاحبة المبادرة و تعرف جيدا التركيبة السياسية والبشرية للجامعة. و لم يبدأ اهتمام الجامعة العربية بالجزائر إلا بعد المذكرة أو التقرير الذي وجهه حزب الشعب الجزائري إليها سنة 1946، حول العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر و الذي قدم فيه " لمحة تاريخية عن الغزو الفرنسي و أثاره المختلفة ثقافيا و اجتماعيا و اقتصاديا لتخلص إلى ضخامة ضحايا العدوان الفرنسي و التأكيد في الختام على عروبة الجزائر و ضرورة إدراج القضية في مجلس الجامعة "(الذاكرة، 1995: 82–98) و قد لعبت جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا

بقيادة الفضيل الورتلاني و الشيخ الخضر حسين و بعدها لجنة تحرير المغرب العربي دورا كبيرا في التعريف بالكفاح الجزائري و دعمه في مصر و سوريا خاصة و المشرق العربي عامة .

– الموقف السوفياتي

لم يكن للإتحاد السوفياتي مصالح مباشرة في سوريا قبل تعرضه للهجوم الألماني الكبير (حملة بربروسا) في جوان 1941 ذلك الهجوم الذي دفعه إلى التراجع عن التحالف الجرماني– السوفياتي والانضمام إلى التحالف الغربي المعادي للنازية والفاشية ومن هنا، بحكم تقاطع المصالح، بدأ اهتمام الإتحاد السوفياتي بما يجري في الشرق الأوسط ومما ساعد على ذلك هو توجه ديغول نحو التقرب من ستالين لحثه على الاعتراف بحركة فرنسا الحرة لتعويض ما فقده من دعم مادي ومعنوي من بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية ، وضمان حليف قوي يؤيد كل تحركات أحرار فرنسا في سوريا ولبنان، وقد شعرت الحكومة السورية بمخاطر التزكية السوفياتية للمواقف الفرنسية وحاولت قطع الطريق أمام الفرنسيين والعمل من أجل إقامة علاقات مباشرة مع السوفيات وأثمرت هذه المساعي بالاعتراف باستقلال سوريا والموافقة على تبادل التمثيل الدبلوماسي في نهاية شهر جويلية 1944 و" في 20 أكتوبر من نفس السنة يصل إلى بيروت أول وزير سوفياتي مفوض في سوريا وهو دانيال صولود ويقابله في موسكو نظيره فائز الخوري عن سوريا"(محمد رجائي،ر. 2003: 273) ومنذ ذلك الوقت أصبح الإتحاد السوفياتي أكثر اهتماما بما يجري في المنطقة، ولما تعرضت سوريا للعدوان العسكري الفرنسي أصدرت الحكومة السوفياتية بيانا ناشدت فيه بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والصين لاتحاد إجراءات مستعجلة لوقف الخصومات وتنظيم الاتفاق بالطرق السلمية، كما أبدى رفضه التواجد الأجنبي على الأراضي السورية ولا أي مقام مميّز لأي دولة أجنبية كانت .

أما عن موقف الاتحاد السوفياتي من العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر فلم يقع بين أيدينا ما يؤكد موقفه من العدوان صراحة إلا ما يمكن استنتاجه من خلال موقف الشيوعيين الجزائريين وصحافتهم ، فقد كان الحزب الشيوعي الجزائري فرعا من الحزب الشيوعي الفرنسي العريق والذي هو من الأحزاب الشيوعية البارزة على المستوى الدولي و التي تتجاوب مع الاتحاد السوفياتي وتمجد قيادة ستالين و مواقفه. وانطلاقا من هذه العلاقة المتعدية يمكننا القيام بعملية إسقاط لاستخلاص الموقف السوفياتي من العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر طالما أن مواقف كلا الحزبين الشيوعيين الفرنسي و السوفياتي لا يمكن أن تتعارض نظريا بحكم القاسم الايديولوجي المشترك، و التنسيق السياسي الدائم بينها .

انطلاقا من هذه الاعتبارات سجلنا موقف الحزب الشيوعي الجزائري وصحافته مثل "الجزائر الجديدة" ، "الحرية"، "الجزائر– الجمهورية" ؛ وكذا صحيفة" الإنسانية" لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي وهي الصحف التي اعتبرت العدوان مؤامرة فاشية و فيشية يجب معاقبة مرتكبيها، كما نددت بالقمع الوحشي ووجهت تهما إلى "لستراد كاربونيل" و "اشياري" و"دوفال"، وطالبت بمعاقبتهم " لأنهم المسؤولين الحقيقيين، مدبري الجريمة و المشرفين عليها و الذين لا يزالون يتمتعون بالاحترام و يزاولون عملهم في مناصبهم" (الحرية، 1946:

1946/12/29). من جهة أخرى طالبت الصحف الشيوعية في الجزائر بإطلاق سراح سجناء قمع 1945/05/08 والدعوة إلى استعادة الثقة في السكان المسلمين و الأوربيين، ووقف المسار الدموي الخطير للأحداث.

وفي الختام لا يمكن الجزم بتطابق هذا التحليل الإستنتاجي الافتراضي تماما مع الموقف الرسمي للاتحاد السوفياتي الذي كان كغيره من المنتصرين الكبار مشغولا بأجواء الاحتفال وترتيب بيته الداخلي الكبير أصلا و الذي زاد اتساعا خاصة بعد تحريره لأوربا الشرقية، و حرصه على تعيين ودعم حلفائه الشيوعيين في المنطقة لضمان المجال الحيوي السوفياتي.

– موقف الهيئة الأممية

إن كانت المسألة الجزائرية أو مسألة العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر يوم 08 ماي 1945 ، لم تحظ باهتمام الهيئة الأممية الناشئة لان الكبار فيها –كما جرت العادة– اعتبروا الموضوع شأن داخلي بين فرنسا و رعاياها و هو نفس الموقف الذي أبداه التحالف الانجلو–أمريكي بعد إنزال شمال إفريقيا في 08 نوفمبر 1942 ، كما أن انشغال العالم و لا سيما الدول الكبرى الفاعلة في الهيئة باحتفالات الانتصار على النازية و الفاشية ألقى بضلاله على المأساة الجزائرية ، فلم تتبنى الهيئة – وهي مازالت تخطو خطواتها الأولى – موقفا بشأن العدوان العسكري الفرنسي على الجزائر بل أن الجزائريين هم الذين حاولوا الاتصال بالهيئة و إبلاغها بما حصل في الجزائر من إراقة للدماء و ذلك من خلال الرسائل التي وجهها الفضيل الورثلاني إلى الهيئة الاممية و سفراء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن في إطار نشاطاته ضمن جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا مع الشيخ محمد الخضر حسين انطلاقا من مقر تواجدها في القاهرة و منها الرسائل الموجهة للجامعة العربية و هيئة الأمم بتاريخ 6 و 10 ماي 1945"(الورتيلاني،ا. 2007: 233–239)، و"يوم 08 ماي 1946" (الورتيلاني، 2007: 243)، و"إلى مؤتمر سان فرانسيسكو في أكتوبر 1945 و هيئة الأمم يوم 1946/08/03" (الورتيلاني،ا. 2007: 281).

على العكس من ذلك كانت المسألة السورية اللبنانية ضمن جدول أعمال الهيئة بل أنها كانت من القضايا الأولى التي عالجتها الهيئة على أساس أن سوريا و لبنان كانت قد أعلنتا الحرب على دول المحور في ربيع 1945 ،مما هيأ لهما الطريق للاستفادة من الانتساب للهيئة كأعضاء مؤسسين " مثّل سوريا لدى الهيئة الأممية كل من رئيس الوزراء " فارس الخوري" رئيسا و "ناظم القدسي" وزير مفوض في واشنطن و " نعيم انطاكي " عضوا و " فريد زين الدين" و "نور الدين كحالة" مستشارين و " توفيق هنيدي" سكرتيرا"(محمد رجائي،ر. 2003: 282). وقد ألقى فارس الخوري كلمة سوريا يوم 1945/05/12 و في 06 جوان وقّع على ميثاق الهيئة و هو ما يعني قانونيا و دوليا أن سوريا دولة مستقلة على أساس أن العضوية في الهيئة مفتوحة للدول المستقلة فقط و من ثم كان لزاما على الهيئة بذل كل المجهودات للحفاظ على سيادة دولة داخلة في عضويتها ، فبعد نجاح سوريا في استلام القوات الخاصة بقيت مسألة تواجد القوات الفرنسية و لو أن القوات البريطانية كذلك كانت متواجدة

في التراب السوري لكن بناء على طلب من الحكومة السورية و للبحث في مسألة الجلاء النهائي عن الأراضي السورية و اللبنانية بدأت سلسة من المباحثات و المحادثات بين البريطانيين و الفرنسيين و لاعتبارات سياسية و إستراتيجية و تقنية كانت النتائج غير مرضية للسورين الذين وجهوا رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة السيد / تريغيف لي وذلك يوم 1946/02/04 تدعوه إلى طرح مسألة جلاء القوات الأجنبية عن الأراضي السورية على مجلس الأمن ، وبناءا عليه اجتمع مجلس الأمن الدولي بين 1946/02/14 و 16 منه ، واستمع إلى وجهات نظر كل الأطراف و الأعضاء في مجلس الأمن بدأ بالوفد السوري ، و لم يحظ أي اقتراح بإجماع كل الأعضاء لأن كل المقترحات كانت إما ناقصة أو يشوبها بعض الغموض وفي الأخير نال الاقتراح الأمريكي (محمد رجائي،ر. 2003: 289) موافقة 07 دول و امتناع فرنسا و بريطانيا و بولونيا عن التصويت ، ثم استعمل المندوب السوفياتي حق الفيتو ضد المقترح الأمريكي فبطل القرار قانونيا إلا أن وزيرا خارجية فرنسا و بريطانيا أعلنا عزمهما على تنفيذ قرار مجلس الأمن رغم النقض السوفياتي، و عاد الوفد السوري إلى دمشق، و بدأت مفاوضات أنجلو-فرنسية في باريس اتفق فيها الطرفان على الانسحاب من سوريا بين 11 مارس و 30 أفريل و بالفعل تم الجلاء فعليا في منتصف أفريل و أقرت الحكومة السورية يوم 17 أفريل عيدا قوميا للاستقلال .

الانعكاسات السياسية للعدوان

انتهى العدوان العسكري الفرنسي على البلدين و لكن بقيت آثاره الأليمة في تاريخ البلدين على كل المستويات و لكن تلك الآثار كانت حاسمة وفي غاية الأهمية خاصة على المستوى السياسي لأنه شكل منعرج حاسم في مسيرة الكفاح التحرري في الجزائر و سوريا على حد السواء ، فقد كانت نهاية العدوان بالنسبة لسوريا بداية مرحلة جديدة لطالما حلم بها الوطنيون السوريون و بذلوا من أجلها النفس و النفيس ألا و هي نيل الاستقلال و الحرية و عموما يمكن تلخيص الانعكاسات السياسية للعدوان على سوريا كما يلي :

- ✓ تدويل المسألة السورية.
- ✓ إرباك فرنسا و إحراجها على المستوى الدبلوماسي الدولي .
- ✓ إضعاف مركز فرنسا السياسي في عيون حلفائها .
- ✓ إحداث القطيعة بين الشعب السوري و الإدارة الاستعمارية
- ✓ دعم معنويات حركات التحرر في المشرق و المغرب العربيين و في باقي دول العالم الثالث الخاضعة للاستعمار الأوروبي.
- ✓ إنعاش حركات التحرر في المستعمرات الفرنسية و لا سيما الجزائر و المغرب و تونس و مدغشقر و السنغال
- ✓ دعم مركز و نفوذ الكتلة الوطنية في سوريا نظرا لدورها الطلائعي و البطولي في قيادة معركة التحرير .
- ✓ نجاح الدبلوماسية السورية في انتزاع الدعم و المساندة الإقليمية و الدولية لمؤازرة الكفاح الوطني.
- ✓ الزيادة في تعفين أزمة النظام الاستعماري الفرنسي.

- ✓ دعم مكانة سوريا داخل الهيئة الأهمية .
- ✓ تأكيد مكانة و دور سوريا في الجامعة العربية .
- ✓ تأكيد همجية الاستعمار الفرنسي للرأي العام العالمي بارتكابه مجزرتين رهيبتين في نفس الشهر .
- ✓ تبقى أهم نتيجة سياسية هي نهاية العدوان الفرنسي ونيل سوريا لحريتها و استقلالها دون قيد أو شرط.

لما توقف العدوان دمشق نراه قد استمر لأسابيع في باقي المناطق حسب ما أوردته برقيات المحافظين هناك، والتزم الجنود الفرنسيين البقاء في ثكناتهم طبقا لأوامر الجنرال باجيت، و بالمناسبة–أي إنهاء العدوان– أبرق كل من الرئيس شكري القوتلي ووزير الخارجية جميل مردم بك إلى نظيريهما البريطانيين ونستون تشرشل وأنطوني ايدن برسالتي شكر وتقدير على المساعدة. واستلم البريطانيون زمام الأمور وعاد رئيس الوزارة فارس الخوري من سان فرانسيسكو في 26 أوت 1945 لتشكل وزارة جديدة تستمر في تسيير البلاد لمدة 35 يوما وبعدها يقوم سعدالله الجابري بتشكيل وزارة جديدة (الخامسة منذ 1943) ، وفي شهر فيفري 1946 أقر مجلس الأمن الدولي جلاء الجيش الفرنسي من سوريا وتنصاع فرنسا لأوامره في شهر مارس الموالي وحدد مجلس الأمن آخر أجل لانسحاب القوات الفرنسية والبريطانية على حد السواء في منتصف أفريل 1946، وبالفعل في التاريخ المذكور خرجت هذه القوات من الأراضي السورية ليختار السوريون يوم 17من نيسان (أفريل) عيدا وطنيا للاستقلال، بعد 10 أشهرو17 يوم من العدوان، وبعد احتلال دام 45 سنة و8 أشهر و23 يوما، لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة الاستقلال .

في اليوم الموالي لانسحاب القوات الفرنسية ألقى الرئيس شكري القوتلي خطابا هاما جاء فيه: " ..... بني وطني... هذا يوم الحق تدوي فيه كلمته ويوم الاستقلال تتجلى عزّته.... لقد صبرنا حتى انقلبت النقمة نعمة ، وحفر الاستعمار بيده لحده، ومن حالكات تلك الليالي السوداء بزغ فجر هذه الحرية الزهراء..... إننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانته..... وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به، نشكر الله توفيقه، وللشعب ثباته وصدق بلائه. ونقطع على أنفسنا عهدا أكيدا أن نحافظ على استقلالنا." (مؤلف مجهول، 2001:).

إذا كان كفاح السوريون قد توّج بنيل الاستقلال و الحرية بعد العدوان العسكري الظالم، فلملموا جراحهم و بدأت أفراحهم فإن الجزائريين دفعوا فاتورة أثقل ماديا و بشريا، فقد خرب العدوان ديارهم وأباد أجسامهم لكنه لم يقتل أفكارهم الثورية بل أدخلهم في مرحلة جديدة من الكفاح الوطني وهم فيها أكثر نضجا و صلابة و عزيمة على انتزاع حريتهم و استقلالهم و بالأسلوب الذي تفهمه فرنسا.

بالنسبة للانعكاسات السياسية للعدوان الفرنسي على الشعب الجزائرى فهي كما يلي:

1– لعل أهم نتيجة سياسية للعدوان هي قناعة الحركة الوطنية الجزائرية بعدم جدوى الكفاح السياسي لوحده، أي إذا لم يكن مقرونا بالكفاح المسلح و حدوث القطيعة بين الاستعمار و الحركة الوطنية.

2-إعادة بناء الحركات السياسية الجزائرية و ظهورها تحت تسميات جديدة ابتداء من سنة 1946، حيث عاد حزب الشعب الجزائري باسم الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية، وعاد حزب أحباب البيان و الحرية تحت اسم جديد هو الاتحاد الديمقراطي من اجل البيان الجزائري ، كما عاد الشيوعيون للنشاط باسم أصحاب الحرية والديمقراطية، كما عادت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للنشاط بقيادة البشير الإبراهيمي بعزيمة اكبر ولتتموقع في الخارطة السياسية بكل وضوح.

3-في ربيع سنة1947 أي سنتين بعد العدوان تظهر أول نواة للتنظيم العسكري و المتمثلة في المنظمة السرية أو الخاصة التي أسسها أولئك الشباب الجزائريين الذين عايشوا عدوان الثامن ماي و استخلصوا منه الدرس الذهبي و هو أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، وأن الحلول السياسية لوحدها حلول عقيمة ولن تؤت ثمارها إلا إذا اقترنت بالعمل المسلح وهي اللغة التي تفهمها فرنسا دون سواها.

4-الإيمان بضرورة التنسيق و التعاون بين كل دول المغرب العربي لمواجهة العدو الواحد وتشتيت قوته، وفي هذا الإطار تأسست لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة سنة 1947(الأمير خالد ، عبد العزيز الثعالبي ، عبد الكريم الخطابي) .

5-تشويه صورة النظام الاستعماري الفرنسي لدى الرأي العام العالمي عموما و الرأي العام الأوروبي والفرنسي خصوصا من خلال وسائل الإعلام، و هذا بالرغم من محاولات فرنسا تقزيم العدوان و نتائجه والتعتيم على وقائعه و توجيه أصابع الاتهام للجزائريين و الفاشيين و التحالف الانجلو- أمريكي، و البريطانيين بشكل اخص قصد تبييض ساحة فرنسا مما ارتكب في الجزائر في حق شعب أعزل خرج في مظاهرات سلمية للتعبير عن فرحته بنهاية الحرب و انتصار "الديمقراطية" ضد النازية و الفاشية ، ولتذكير فرنسا بوعودها التي قطعتها على نفسها قبل الحرب .

6- تمكنت فرنسا من استرجاع هيمنتها ونفوذها على الجزائر، ووضعت حدا نهائيا للإطماع الانجلو– أمريكية وتدخّلها في شؤون فرنسا " الداخلية ".

7-الزيادة في تفاقم الأزمة الهيكلية للنظام الاستعماري الفرنسي الذي لم يكد يلتقط أنفاسه مما وقع في الجزائر حتى اشتدت ضده المقاومة في سوريا و لبنان و في الهند الصينية و المغرب و تونس و مدغشقر و غينيا و السنغال...

8-ساهمت مأساة الثامن من ماي في رص صفوف الحركة الوطنية و دفعها نحو المزيد من التنسيق و التشاور ، بدأ بمقاطعة انتخابات جويلية 1945 ثم بعد ذلك تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية و احترامها سنة 1951، والتي وقفت بالمرصاد للحاكم العام " نايجلان" و مهازله الانتخابية.

9-إحداث القطيعة النهائية بين النظام الاستعماري و الحركة الوطنية و الشعب الجزائري .

10-حل الأحزاب السياسية و اعتقال زعمائها حيث " تم إلقاء القبض على فرحات عباس و الدكتور سعدان من قاعة انتظار الحكومة العامة يوم 8 ماي 1954 على الساعة العاشرة و هما قادمان بصدد تقديم التهاني

للحاكم العام " ايف شاتينو" بمناسبة انتصار الحلفاء على المحور "(فرحات، د.ت:)، كما اعتقل البشير الإبراهيمي و تم نقل مصالي الحاج إلى برازافيل .

11- اتخاذ فرنسا إجراءات و إصدار قرارات لامتصاص غضب الجزائريين مثل إصدار قانون العفو في مارس 1946 الذي أطلق بمقتضاه سراح مصالي الحاج ، والدكتور سعدان و فرحات عباس ، كما أصدرت لنفس الغرض – أي التهدئة و امتصاص الغضب – ما سمي" بدستور الجزائر في 20 سبتمبر 1947.

12- بإجماع المؤرخين الجزائريين منهم و الفرنسيين كان عدوان 8 ماي 1945 ، وآثاره الأليمة هو الخلفية و الأرضية التي هيأت لقيام الثورة التحريرية الكبرى في فاتح نوفمبر 1954، و العناصر الوطنية الشابة التي عايشت و عاينت وعانت من المجازر الرهيبة هي التي تولت التخطيط و التنظير و التحضير المسلح لتفجير الثورة الجزائرية. أي أن بذور1945 هي التي أفرزت الثورة التحريرية الكبرى سنة 1954 أي بعد تسع (09) سنوات من العدوان وعلى العكس تماما مما قاله قائد القوات الفرنسية الجنرال دوفال مطمئنا حكومته- على أن الضربات القوية التي تلقاها الجزائريون خلال العدوان ستمنح فرنسا 10 سنوات من الهدوء و الاستقرار، فكان الهدوء نعم لكنه هدوء ما قبل العاصفة ، حيث استعاد الجزائريين أنفاسهم و ضمدوا جراحهم، و كانت عاصفة نوفمبر 1954 التي أشعلت النار الثورية ووضعت حد للاستعمار و حققت آمال و أمنيات شهداء ماي 1945، التي لم تذهب سدى!!.

لعل من المصادفات الغريبة أن أبشع آثار هذه المجازر الرهيبة كانت في الشرق الجزائري و في هذا المجال الجغرافي نفسه تتأسس المنظمة الخاصة وأنصارها في صفوف حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي تبنت الكفاح المسلّح و من نفس المجال الجغرافي دائما تنطلق شرارة التحريرية الكبرى في فاتح نوفمبر 1954 لتعم باقي ربوع الجزائر!!

الخاتمة

كانت السياسة الاستعمارية رغم اختلاف أشكالها ومسمياتها بين الانتداب على سوريا و الاحتلال للجزائر – إلا أنها كانت واحدة في ممارساتها الجوهرية. لقد استخدمت فرنسا مختلف الأساليب و الوسائل لتحقيق نفس الأهداف هنا وهناك حيث رأينا كيف أمعنت في استغلال خيرات و طاقات الجزائريين و السوريين ، وتفكيك البنى الاجتماعية في البلدين و تكريس العنصرية بتأكيد تفوّق الرجل الأوربي و دونية الرجل العربي . ولم تدّخر جهدا في تشويه مقوّمات الشخصية العربية و فرض نمط المعيشة و القيم الأوربية . كما عملت على نهب الكنوز الحضارية للبلدين و ربط اقتصادياتهما بالاقتصاد الفرنسي. وكمّمت أفواه الناس و زرعت الرعب في نفوسهم، ولم تتوان في سبيل تحقيق أغراضها الاستعمارية في شن الحروب على السكان.

بالرغم من كل الممارسات الهمجية و العنيفة لم تنجح فرنسا في تركيع الجزائريين و السوريين وعلى العكس مما كانت تتوقّعه فرنسا ، فقد كانت تلك الممارسات مدعاة للتفكير وحافزا قويا للقيام بردود فعل وطنية لمواجهة

الظلم و الطغيان الاستعماري الفرنسي بدليل ما عرفه البلدان من ملاحم و بطولات ومقاومات اتخذت اشكال عديدة هنا وهناك عجّلت بنهاية الهيمنة الفرنسية.

كان ولازال ذلك العدوان الهمجي في البلدين محل دراسات سياسية و تاريخية جزائرية و سورية و أجنبية توجّهها رغبات الباحثين في الكشف عن مزيد من الحقائق و اجلاء الملابسات كلما أفرجت الإدارة الفرنسية عن أجزاء جديدة من الوثائق المتعلقة بالموضوع رغم ان الإدارة الفرنسية مازالت تتحكّم في الأرشيف الوثائقي المتعلق بالموضوع لذلك يبذل الدارسون و الباحثون مجهودات جبارة على المستوى العلمي، و السياسيون على المستوى الرسمي لدفع الإدارة الفرنسية إلى الإفراج عنها .

البيبليوغرافيا

1- الذاكرة. (1995) ، العدد 2، السنة الثانية.

2- الحرية.(29 12, 1946).

3- ريان محمد رجائي. (2003). قضية استقلال سوريا في الحرب العالمية الثانية، دراسة سياسية،. الاردن: دار نورالدين.

4- سعيد التلاوي. (1951). كيف استقلت سوريا. دمشق: مطابع مجلة الدنيا.

5- سلمى مردم بك. (1994). استقلال سوريا (أوراق جميل مردم بك). بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع و النشر.

6-شارل اندري جوليان. (1976). إفريقيا الشمالية تسير. الجزائر- تونس: الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

7-عباس فرحات. (د.ت). حرب الجزائر وثورتها، ليل الاستعمار. المحمدية- المغرب: مطبعة فضالة.

8-علال الفاسي. (1948). الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، . القاهرة: مطبعة الرسالة.

9-علي رضا. (1979). قصة الكفاح الوطني في سوريا سياسيا وعسكريا حتى الجلاء. حلب-سوريا: المطبعة الحديثة.

10-الفضيل الورتيلاني. (2007). الجزائر الثائرة. الجزائر: دار الهدى للطباعة و النشر.

11-كامل الدعواق. (د.ت). دمشق تسبح بالدماء!؟! أو ايار1945 والعدوان الفرنسي، اسرار لم تنشر من قبل. بيروت.

12-محروس حلمي حلمي. (2004). تاريخ إفريقيا من الكشوفات الجغرافية إلى قيام م.الوحدة الافريقية. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

13-محفوظ قدّاش. (2007). 8 ماي 1945. الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للنشر و الاشهار.

14-منير تقي الدين. (1956). الجلاء، وثائق خطيرة تنشر لاول مرة. بيروت: دار بيروت.

15-مؤلف مجهول. (1945). عدوان فرنسا على سوريا ايار/حزيران 1945. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

16-مؤلف مجهول. (2001). شكري القوتلي يخاطب أمته" مختارات من خطبه وبياناته. الامارات العربية المتحدة: مكتبة الفجيرة الوطنية.

17-وليد المعلم. (1985). سوريا 1918 – 1958، التحدي والمواجهة. دمشق: مطبعة عكرمة، دمشق، .

18-Ahmed Mahsas .(1979) .*Le Mouvement Révolutionnaire en Algérie, de la 1ere guerre mondiale à .,1954* Paris :l'Harmattan.

19-Ligue des droits de l'homme .(2009 ,7 9) .www.ldh-toulon.net/spip.php?article600 . Toulon ،france.

20-Mahfoud Kaddache .(1980) .*Histoire du Nationalisme Algérien 191919-1951 , tome 2, sned, Alger, 1980* .Alger: SNED.

21-Redouane Ainad Tabet .(1985) .*Le 8 mai 1945 en Algérie* .Alger: Enal/Opu.

22-Roger Letourneau .(1962) .*Evolution politique de l'Afrique du nord musulmane1920-1961* .Paris : Armand Colin.